ثقافة المرأة

يجب أن تخضع لوظيفتها الطبيعية والاجتماعية

بقلم الأستاذ سيد قطب

"هل نبق على ما ألفناه من الاحتفاظ بالمرأة لخدمة البيت وتربية الاطفال تربية صالحة ، وتهيئ لها ثقافة خاصة تعدها لتأدية هذين الواجبين أم نجعل تعليمها طليقا من كل قيد ، ونسمح لها بالعمل فى كل ما يعمل فيه الرجال؟ هذا ما يجلوه الكاتب الفاضل فى هذا البحث الممتع وهو ينتصر للفكرة الاولى ويقدم الوسائل لتحقيقها ، آخذا فى ذلك بمنطق سليم وتدليل قويم ." المحرر

يعمر نفسى إيمان عميق بحكمة التفريق فى الخلق بين الذكر والأنثى ، ووجود أثر بارز فى حياة الجنسين وتكوينهما العقلى والخلقى نتيجة لهذا التفريق .

ولست فى حاجة أن أتقصى المباحث "الفسيولوجية" لبيان الفروق بين وظائف الأعضاء فى الرجل والمرأة — على كثرتها واستفاضة الحديث فيها — فالبداهة وحدها تكفى لإثبات هذه الفروق ، والمهمة التى يقوم بها كلاهما لحفظ النوع ، تحدد طبيعة هذه الفوارق بشكل حاسم .

وفى عصرنا الحاضر الذى يتجه فيه البحث — حتى السيكلوجى — إلى الاعتماد على البحوث "الفسيولوجية" والبحوث "البيولوجية" ، وينهج العلم فى كل فروعه نهج التجربة والاختبار فى المعامل على أساس المحسوس . فى هذا العصر — وهذه نزعته — لا يحتاج الباحث لأن يبرهن طويلا على أن كل وظيفة جسمية تقتضى اتجاها عقليا وخلقيا خاصا فى الكائن الحى ، لأنها تكيف استجاباته للمؤثرات تكييفا خاصا ، وهذه الاستجابات المعينة ، هى التى تكون الجزء الأهم من سلوكنا فى الحياة . وكل إغفال لهذه الحقيقة فى التربية والتثقيف ، يعتبر غلطة فى تنشئة الفتى والفتاة . غلطة لها عواقبها على الفرد والمجتمع .

ومن هنا كان الحديث عن "ثقافة المرأة" حديثا فى صميم الاجتماع ، وصميم عمل "وزارة الشئون الاجتماعية" وإن فهم أن وزارة المعارف هى المسئولة عن التعليم .

"الوظيفة تخلق العضو" هذا مبدأ أصبح مسلما به فى البحوث الفسيولوجية "والوظيفة تحدد نوع الثقافة" هذا مبدأ يجب أن يسلم به فى الدراسة "السيكلوجية". وهو مسلم به فعلا فى هذه الدراسات . ولكن بقى تطبيقه عمليا فى المدرسة والمنزل والمجتمع .

والآن : ماهى وظيفة المرأة المصرية ؟ سؤال يجب أن نستشير فيه عاملين :

الأول — هو الغرض الطبيعى من وجود المرأة فى الأرض ، ووجود كل أنثى ، وهو حفظ النوع وامتداد الحياة .

والثانى — هو الوضع الاجتماعى — بما فيه الجانب الاقتصادى — للمرأة فى الشعب الذى تعيش فيه .

وكلا هذين العاملين لايزال — حتى اليوم فى مصر — طبيعيا ، لم ينحرف كما انحرف فى أوربا أيام الحرب العظمى وبعدها ، فنحن — والحمد لله — لم نصب بعد بداء طاحنة تنقص عدد الرجال القادرين على الزواج والإنسال ، والفرق فى التعداد الأخير بين عددى الذكور والإناث لا يعدّ مقلقا . كما أن حاجتنا إلى العاملين فى الحياة العامة لا تزال محدودة ، وهى لا تستغرق جميع القادرين على العمل من الذكور ، حتى نلجأ لنصف الأمة اللطيف ، ندعى بنانه الناعمة بالعمل ، ونضنى كيانه الرقيق بالإجهاد ، بل نحن على العكس نشكو أزمة المتبطلين من الشبان .

وظيفة المرأة المصرية إذن — كوظيفة كل امرأة فى وضعها الطبيعى — هى تكوين المنزل ، وتنشئة الطفل ... وبالتالى . إنشاء المجتمع فى صورته المصغرة " الأسرة " .

ولست أدرى أن هناك تبعة أعظم من تبعة المرأة فى هذا الوضع الطبيعى الجميل ، ولا أستطيع أن أتصوّر وظيفة أخطر من هذه الوظيفة ، أو خطأ أشد من خطأ الذين يتجاهلونها ويحاولون إلباس المرأة ثوب الرجل ، بعقيدة أنهم يرفعون منزلتها حينئذ ، وينصفونها من الغبن الذى يتوهمون ! إلا إذا كان غبنا أن يؤدى الحى وظيفته كاملة فى الحياة ، ويقوم بأعباء جنسه غير منقوصة .

ومتى تحددت الوظيفة ، تحدد معها نوع التربية ولون الثقافة . فإذا أريد من المرأة المصرية أن تكون منشئة الجيل القادم ، وجب أن تزود فى ثقافتها ، بما يسهل لها هذه المهمة ، ويقدرها عليها . وكل انحراف بهذه الثقافة فى أية مرحلة من مراحل التعليم عن هذه الغاية ، يعتبر شذوذا بالمرأة عن غايتها وغاية الحياة والمجتمع منها ، وانحرافا عن الخطة المثلى لأوضاع الشعب الاجتماعية .

فالفتاة المصرية إما أن يراد لها أن تكون أما وربة بيت ، فيجب حينئذ أن تلاحظ هذه الوظيفة فى وضع برامج ثقافتها . وإما أن يراد بها الشذوذ عن هذه الغاية الطبيعية ، فتدرس حينئذ على نظام الفتيان — الذين ستؤدى وظيفتهم — وتكون قد وطدت نفسها ووطد أهلها نفوسهم ، وعزمت الدولة كذلك ، على ألا تحيا هذه الفتاة الحياة الطبيعية لها . لأنها — ومعها أهلها والدولة — قد نذرت نفسها للعلم والبحث ، أو للعمل فى ميدان الحياة كما تنذر الراهبات للدير ، حين ينحرفن عن الوضع الطبيعى لمن فى هذه الحياة !

ولا أحب أن يحمل هذا القول على محمل الغلو ، أو العبث بالصور والتشبيهات ؛ فانا أعنى حقيقة ما أقول .

والفتاة إما مثقفة ثقافة نسوية خاصة ، تناسب طبيعتها وتناسب وظيفتها ، فلها أن تترقب زوجا وترجو عشا ، وإما شاذة عن الطبيعة والوظيفة ، فيجب أن يستمر هذا الشذوذ فى مقتبل حياتها ، ويتعين عليها أن تسلك الطريق الوحيد الذى يعينه هذا الشذوذ ؛ فلا تتطلع إلى الزوج والعش ، والأطفال والأسرة ، لأن لهذه الحياة مستلزمات لم تتهيأ لها ، بل بعدت بثقافتها عنها . ولتكن قربانا على مذبح العلم أو العمل ، وكم للعلم من قرابين !

ولكى نزيد هذا القول وضوحا نشرح مواد الثقافة التى تحتاج إليها الفتاة لتكون أما وربة بيت ، ونرى كم تصيب الفتاة المصرية منها فى دور التعليم الثانوى ، ودور التعليم العالى على نظام البنين .

تحتاج الفتاة إلى نوع من الثقافة العقلية والمعلومات العامة ، وهذا ما تجد كفايتها منه فى البرامج الحالية فى جميع أدوار التعليم ، بل تجد فوق الكفاية .

وهذا النوع من الثقافة لازم للمرأة إلى حد تستطيع به فهم الدراسات الأخرى الضرورية لها ، وتستطيع به التفاهم كذلك مع شريكها المثقف ومسايرة تفكيره . ولكنه وحده لا يكفى .

فهى تحتاج الى دراسة — إن لم تكن مستفيضة فكافية — عن طبيعة الطفل وغرائزه وطرق إحساسه وتفكيره ، لتستطيع القيام على تربيته ، ولا سيما فى السنوات الخمس الأولى التى ثبت أنها تكون أساس السلوك بقية الحياة ، ولتتجنب الأخطاء التى تقع فيها الأم الجاهلة . والمثقفة ثقافة البنين العامة ، كالجاهلة فى هذه الناحية ، لأنها لم تدرسها بعناية واهتمام .

وتحتاج الى دراسة عن صحة الطفل وصحة الحامل ، لا نقول إنها يجب أن تصل الى حد التخصص ، ولكنها تفيد فى الحالات العادية التى لا يحتاج فيها الى الطبيب . كما يجب تمرينها على الاسعافات الأولية والتمريض المبدئى ، لأنها ستصادف يوميا فى حياتها المنزلية ما تحتاج فيه الى هذا المران .

ولا شىء من هذا أو ذاك فى البرامج الحالية ، إلا قليل فى معاهد المعلمات على اختلاف درجاتها .

وتحتاج إلى دراسة طويلة عن أدب الأطفال ، وعن مكتبة الطفل ، وقصصها الساذج ، وسير الأبطال والعظماء بطريقة مشوقة جذابة ، فعلى هذا الأدب الخاص تعتمد الأم المهذبة أكثر الاعتماد فى تربية طفلها . ولا شىء من هذا حتى فى معاهد المعلمات .

وتحتاج إلى معرفة شيء عن " التربية الجنسية " لتفهم طفلها وطفلتها فى مرحلة المراهقة ، فتكون صديقة للصبي ومستشارا للعبية فى هذه المرحلة ذات الأثر البارز فى مستقبل الأبناء .ولا يزال النظر إلى هذه الدراسة كنظر الأميين العوام !

وتحتاج إلى التدبير المنزلى ، إلى وضع ميزانية المنزل ، وتفصيل الملابس وطهى الطعام والإشراف على الخدم ، ومعالجة المشاكل اليومية فى البيت . وخلق جو من التسلية ومباهج الحياة به .

كما تحتاج إلى توجيه ذهنها إلى خصائص الحياة الزوجية ، وتعليمها سياسة الزوج ، وترويض الرجل ! وهذا يضطرها الى معرفة شيء كثير عن نفسية الرجال، وطرق تفكيرهم .

وهذه أمور لا تلقى شيئا من العناية فى المدارس العامة. فليس من الغلو إذن ، ولا من العبث بالصور والتشبيهات ، أن نقول إن الفتاة التى لا تلم بهذه الدراسات لا تصلح للمنزل الحديث ، ولا لتنشئة الجيل القادم ؛ و إن الفتاة التى تختار دراسة البنين يجب أن تكون قد نذرت نفسها للعلم والعمل ؛ وأصمت أذنها عن سماع كل نداء للجنس ، وكل حق للأنوثة ، فى العش الدافئ الجميل !

ويعتذر بعض المفكرين بأن الفتاة قد لا تجد زوجا ، فيجب أن نسلحها بالعلم لتأمن زلات الحياة . أو أنها قد تجد الزوج فيجب أن نهذبها بالعلم لتستطيع مشاركته فى الحياة . ومن الحق أن تزود من الثقافة بما يضمن لها المشاركة مع رجلها ؛ ولكن أمن المحتم اذا اضطرت الفتاة إلى العمل أن تسلك طريق الفتى ؟ ولم لا نعلمها لتكون مدرسة أو طبيبة أو مربية أو ممرضة إذا لم تجد المنزل والأسرة ، وهى أعمال ضرورية للشعب ، وليس فيها مزاحمة للشبان .

ولماذا نختار هذا الوضع المقلوب لمعالجة أزمة الزواج، فنعمل الشابة ليتبطل الشاب ؟ !

إن إيجاد عمل لشاب ، معناه زواجه ، وإعالة فتاة وأسرة . أما إيجاد عمل لفتاة — مما يصلح للشبان — فمعناه بطالة شاب وتعويق بناء منزل ووأد أسرة .

ويجب أن يكون مفهوما أن أكبر عوائق الزواج فى الطبقة المتوسطة — وعليها المعول فى بناء الشعب — هو العامل الاقتصادى أولا . فاضمنوا للشبان أعمالا ، وزوجات مثقفات ثقافة نسوية أضمن لكم انفراج أزمة الزواج إلى حد كبير .

أما من تشاء بعد ذلك دراسة كدراسة الرجل ، فلا نحب أن نحرمها رغبتها ، التى قد يكون مبعثها شذوذا طبيعيا فيها وميلا الى الرجولة ، فلتسر فى هذا الطريق ، متنازلة عن مطالبها كأنثى ، ورغائبها كامرأة ، لتفسح طريق الزوجية لغيرها ممن أعددن أنفسهن لهذا المستقبل الطبيعى فى حياة الأنثيات ! فلا تزاحم فى وقت واحد فتى وفتاة !

* * *

جاء فى تقرير الأطباء الذين قاموا أخيرا بالفحص عن صحة الطلبة والطالبات فى الجامعة المصرية : أن صحة الفتيات ضعيفة ، لأن الغذاء الذى يتناولنه لا يقوم بالجهد العقلى الذى يبذلنه .

وليس هـذا الضعف عائدا الى سوء التغذية ، ولكنه عائد إلى سـوء استهلاك الغذاء فى الجسم . إلى تكليف هذه البنية الرقيقة فوق طاقتها من المجهود الذهنى ، واستغراق هذا المجهود لأكبر نصيب من الغذاء . وهذا الضعف هو إنذار الطبيعة لهؤلاء الشاردات عن هداها ، للواتى لم يستجبن لصوتها !

والملاحظ فى طور المراهقة ، الذى يبدأ فيه التميز بين الجنسين ، أن الغذاء الذى تتناوله الفتاة ينصرف إلى تكوين لحم وشحم ، فيستدير وسطها ، ويتسع حوضها ، وينهد ثدياها ، وقلما يطرأ تغيير يذكر على تكوين مخها وأعصابها . وهو عكس ما يقع للمراهق ، إذ ينصرف الغذاء إلى تكوين الأعصاب ونمو المخ وكثرة تلافيفه ، وقد يخف جسمه فى هذه الأثناء .

ولهذا دلالة على إرادة الطبيعة من كليهما فى دور النضوج والاكتمال ، والتهيئة للوظيفة المكلف كل منهما فى الحياة .

إننى لأحس بإشفاق عظيم كلما رأيت واحدة من هؤلاء الشاردات عن جنسهن ، اللواتى لم يتهيأن لمستقبلهن الزوجى إلا بأبعـد المواد الثقافية عن هذا المستقبل ، وليس الذنب ذنبهن فى هذا ، إنما هى خطيئة الرجل وخطيئة المناهج الثقافية . بل هى خطيئة الدوار الذى أصابنا وأصاب العالم عقب الحرب العظمى ، بجعلنا نهتف بصيحات لا نعقلها ولا نقدر مداها عن حرية المرأة ومساواة الجنسين ، دون أن ننظم هـذه الحرية ونجعل المساواة قائمة على أساس تأدية الوظيفة الحقة لكلا الجنسين .

وهى ضريبة التطور التى تؤديها من سعادتنا وأخلاقنا ، ولا بد أن يؤديها هذا الجيل شبانا وشابات ، رضى أم كره .

ولكن يجب ألا نثقل على أنفسنا فى أدائها ، وأن نثوب إلى حكمة الطبيعة ونصيخ لندائها

سيد قطب